المحاضرة (٢٨)
نازك الملائكة

الأسرة والبيئة والثقافة:

تهدف هذه السطور إلى الكشف عن العوامل التي أثرت في شعر نازك وفي شاعريتها وفي ثقافتها النقدية، إيماناً منا بأن النشاط الأدبي، كغيره هو وليد مجموعة من العوامل والمؤثرات، إضافة إلى ما تمتلكه من إمكانات وقدرات تميزه من غيره من الناس.

وعلى هذا قام النقد الرومانتيكي الفرنسي ممثلاً بمدام دستال وسانت بيف وتين ورينانن وحيث غننا نهدف إلى دراسة نازك دراسة مفصلة لنصل إلى فهم صحيح لشعرها؟ فإننا سنكتفي بالوقوف على العوامل التي انضجت تجربتها الشعرية وعمقت قدراتها الفنية، وأثرت في مسيرتها في طريق الشعر الحر على الخصوص.

ولعل أولى العوامل المؤثرة في نشاطها الأدبي والشعري، نشأتها في أسرة تعنى بالأدب عناية فائقة، وهي اسرة شاعرة، كان من شعرائها أبوها صادق الملائكة وخلاها جميل الملائكة وعبد الصاحب الملائكة. وقد سبق هؤلاء كلهم والد جدتها (محمد حسن كبة) إذ كان واحداً من شعراء القرن التاسع عشر وكان حجة في الفقه الإسلامي. وأمها سليمة عبد الرزاق والتي عرفت بين افراد اسرتها (بسلمى) والتي كانت توقع قصائدها بأم نزار.

وكانت اختاها سعاد واحسان تعنيان بالأدب والثقافة وتمارسان الكتابة.

ويبدوا أن شاعرتنا قد فادت من ثقافة والدها في اللغة والنحو، وعلى يديه درست النحو– كما تقول– وقد ظهر أثر ذلك في نقدها اللغوي.

أما امها قد كانت من اشد الناس تأثيراً في حياتها الشعرية والنفسية، فقد كانت الشاعرة الصغيرة تجلس إليها لتستمع إلى ما تحفظه من الشعر العربي. وكانت تعرض عليها قصائدها المبكرة، فتبدي لها أمها رأيها فيها.

أما تأثيرها في حياتها ونفسيتها، فقد اقترن ببعض مواقفها، وانعكس في العديد من قصائدها، ومنها قصيدتها الرائعة (ثلاث مرات لأمي) التي تحدث عنها النقاد وفي مقدمتهم شكري عياد والشاعر نزار قباني.

ولقد كان في نشأة الشاعرة في ظل هذه الأسرة، أثر في تطلعاتها الأدبية، وفي مواقفها، فقد كانت أسرتها موسرة الحال، وعلاقات افرادها مع بعضها البعض قائمة على الاحترام، وهو ما هيأ لشارعتنا مكاناً خاصاً في ظل تلك الأسرة، ولذلك نشأة في أحضان الدلال، يرعاها الجميع ويوليها الحب والتقدير، ويحترم شخصيتها ويمنحها حرية التفكير.

ولعل للبيئة الثقافية الشعرية التي تلون به بيتها، أثراً في توجهها إلى القراءة والتحصيل فقد كانت تقضي فراغها في قراءة الكتب وحفظ الشعر ونظمه والحوار فيه مع من تصادفه في دارها، ما عمق احساسها المبكر بالشعر والأدب والثقافة.

وليس هذا فحسب، فقد اقترنت ثقافتها الأدبية بالثقافة الفنية، فكانت تمارس الرسم والتصوير، وظهر ذلك واضحاً في بعض قصائدها.

وعنيت بالموسيقى، إذ كانت قد انتمت إلى معهد الفنون الجميلة ببغداد، لدراسة العزف على العود، واستمرت في دراستها الموسيقية ست سنوات، وكانت معجبة بالحان تشايكوفسكي، ونظمت في ذكرى وفاته قصيدة جديدة.

وتنمية لثقافتها اللغوية، فقد درست اللغة الانكليزية في المعهد الثقافي البريطاني ببغداد ودرست اللغة الفرنسية لعدة سنوات، وقد هيأ لها كل هذا، السبيل إلى السفر إلى الولايات المتحدة، حيث أوفدّت على حساب مؤسسة روكفلر.

وكان لهذه الرحلة العلمية أثر شديد في توجهها لدراسة النقد، حيث تعرفت على كبار النقاد الأمريكيين وفي مقدمتهم كما تقول: ريتشارد بلاكموروآلنيت، ودونالد ستادفروتلمور وغيرهم.

وبعدّ ثلاث سنوات من عودتها قبلت في جامعة وسكونسن في الولايات المتحدة لدراسة الأدب المقارن، فزاد ذلك من اطلاعها على الآدب الأوربية كالألمانية والإيطالية والفرنسية، إضافة إلى معرفتها بالأدب الانكليزي.

وخلال هاتين السنتين، كتبت ابحاثاً بالانكليزية وأخرى بالعربية، نشر بعضها في صحيفة الأهرام القاهرية عام ١٩٦٦.

واتيح لها السفر إلى بعض العواصم العربية، وخاصة بيروت والقاهرة، لتسهم في إلقاء المحاضرات عن الشعر والادب، واسهم أهم ذلك عن تأليفها كتاباً عن علي محمود طه المهندس، وهو دراسة نقدية تحليلية.

وقد اتيح لها ان تزور بعض العواصم الأوربية، مما عمق ثقافتها وزاد من خبرتها بالحياة ومعرفتها بالشعوب، واطلاعها على النماذج الإنسانية المختلفة.

لقد كان لثقافتها الواسعة العميقة، أثر واضح في شاعريتها، وفي تطلعاتها في ارتياد الجديد في عالم الشعر ومجاهله المختلفة، مما كان ينبئ عن ريادتها لحركة الشعر الحر.

ولا نحسب أن شاعراً معاصراً أتيح له من ظروف الثقافة وسبل المعرفة مثلما أتيح لشاعرتنا الرائدة. كما لا نظن أن كل تلك السبل والوسائل والظروف قد ذهبت دون أن يكون لها أثر واضح في فنها الشعري، ومنهجها النقدي.

والذي يستوجب الانتباه حقاً، هو العلاقة بين طبيعة الشاعرة وبين توجهها الثقافي فقد كانت في تكوينها السايكولوجي ووضعها النفسي إنسانة رقيقة الشعور شديدة الاحساس ملتهبة

العواطف، وكان كل حدث مهم يهز مشاعرها ويدق عواطفها ويعمق احساسها بالحياة والمثل العليا.

ولعل اهم هذه الاحداث، موت امها بحضورها، على اثر فشل عملية جراحية اجريت لها في لندن. وكانت الشاعرة قد صحبتها لإلمامها باللغة الانكليزية. وكان لموتها في حضورها أثر شديد في نفسها، ولا يزال كل مشهد مماثل يثير عواطفها ويعمق إحساسها بالحزن والألم، بل كان هذا أحد الأسباب التي وجهتها لشعر الحزن والألم، وشكل أحد العوامل في موقفها التشاؤمي عن الحياة، وهذا ما عبرت عنه في ما كتبته في مذكراتها الخاصة، ولذلك لا نندهش إذا رأيناها تعجب بالشاعر الانكليزي (كيتس) وتسميه شاعر الموت الأكبر، وتتأثر بفلسفته المتشائمة. كما تتأثر بفلسفة شوبنهاور وتعجب بأشد الشعراء العرب المعاصرين تشاؤماً، وهو محمد عبد المعطي الهمشري، بل أنها لتميل ميلاً خاصاً إلى شعرائنا المحدثين الذي انشدوا شعراً ذاتياً عاطفياً رومانتيكياً امثال على محمود طه ومحمود حسن اسماعيل وإبراهيم ناجي وصالح جودة وبدوي الجبل وعمر أبي ريشة وبشارة الخوري وامثالهم. ممن ضربوت على أوتار الحزن والأسى.

وقد وجهتها قراءتها لشعر هؤلاء واعجابها بهم، إلى أن تربط بين هذا اللون من الشعر وبين المواقف التي جسدها هذا الشعر وعبر عنها بالشعر الصادق.

ولقد تجمعت كل هذه العوامل لتحدد لنازك الملائكة نوع شعرها في هذه المرحلة الأولى من حياتها، وهي المرحلة التي تنتهي بنهاية الخمسينات من هذا القرن، فقد كان لطبيعتها الرقيقة واحساسها الحاد بالاشياء وثقافتها الواسعة العميقة، وما صادفها من مواقف مؤلمة وظروف صعبة، كان لهذا كله، أثر في أن يطبع شعرها بطابع عاطفي رومانتيكي حزين.

وكان يقوي هذا الاحساس، بعض التأثيرات الثقافية (فتأثرها بشوبنهاور وكيتس وقراءاها للفلسفات المادية الدينية، واتصالها بالفكر العلمي القائم على الاستدلال المنطقي والمادي، وغير ذلك مما يتصل بالمعرفة العميقة، لعل كل هذه الاسباب قد شككتها في وجود خالق مهيمن لهذه الخليقة، فنشأ في نفسها فراغ فاغر رهيب لا يملأه شيء).

يضاف إلى هذان أنها كانت تنزع إلى مثالية أفلاطونية، وقد جعلها هذا تسعى إلى بناء عالم مثالي (يوتوبيا) يخلو من الظلم والقسوة ويجعل من الانسان مخلوقاً لا مثيل له. ولذلك راحت تفتش عن قواعد الأخلاق ومظاهر النبل، ولكنها لم تجد لعالمها هذا مكاناً على الأرض، فخابت خيبة شديدة وعبرت عنها بشعرها الحزين وموقفها المتشائم.

ويمكننا أن نسمي هذه المرحلة الأولى من حياتها، بالمرحلة الرومانتيكية.

وقد أنعكس هذا الموقف في شعرها تياراً رومانتيكياً ذاتياً عاطفياً، يعبر عن مواقفها تجاه الموت والحياة والطبيعة وأسراها وألغازها. وراحت تناقش ذلك وتحاول الوصول إلى أسراره

العميقة، كما راحت تتحدث عن حب مثالي رسمته لنفسها، وربما قد صدمت به في تجاربها المبكرة، لكن تعبيرها عنه جاء مغلفاً بغلالة رمزية.

إلا أن نازك في كل مواقفها وتجاربها كانت تصدر عن احساس صادق شعوراً وفناً.

إن ضعف إيمان نازك بوجود خالق مسيطر، قد أسلمها إلى الضياع، وسيطر على تفكيرها، وحرمها من متعة السعادة والاستقرار. لكنها حين اهتدّت إلى معرفة اللغة معرفة صحيحة، وآمنت بوجوده غيماناً عميقاً سنة ١٩٥٧ بدأت تتخذ موقفاً جديداً إزاء الحياة والناس وما يتصل بهما، وبدا أنها تغادر عالمها الحزين شيئاً فشيئاً، لتسير في درب يتخذ من الواقع وسيلة مجدية لمواجهة الحياة، وهو طريق يجعل من التفاؤل سمة ظاهرة في شعرها، فإذا هي تغادر موضوعاتها الذاتية وقصائدها العاطفية وتبتعد عن التغني بالألم والبكاء على الأحلام الضائعة والآلام الميتة لتسلك درب الحياة الواقعية، وتستنبط موضوعاتها تجاربها من حياة الأمة ومشاكل المجتمع في العراق ولبنان وفلسطين ومصر وغيرها. وتتحدث عن واقعنا حديثاً صريحاً بعيداً عن الأحلام والرؤى. وهذا ليس معناه، أن الشاعرة قد غادرت شعرها الحزين دون رجعة، فالحق ان شعرها الرومانتيكي الحزين قد ضرب في اعماق وجانها، وشكل سمة شديدة في معظم دواوينها ولذلك فإن سلوكها الجديد في طريق التفاؤل لا يمكن أن يصبح ظاهرة متميزة كظاهرة الحزن، إلا بعد أن يستقر في نفسها، تجربة عميقة ناضجة تحتاج إلى وقت طويل، وربما كانت مجموعاتها (يغير ألوانه البحر) و(للصلاة والثورة) أول ما يشير إلى هذه التيار التفاؤلي الجديد.